كلمة التحرير

د. طه جابر العلواني

"الإبداع" من "أَبْدَعَ" إذا أوجد شيئاً لا على مثال سابق. ومنه اشتقت "البدعة" باعتبارها أمراً يقوم الإنسان به دون استناد إلى أصل شرعي أو دليل معتبر. وإذا تجاوزنا الجانب السلبيّ المتعلق بالبدعة منه؛ لأنه غير ما نتحدث عنه، نجد "الإبداع" صفة في غاية الأهميّة، عمل الإسلام على أن يجعل منها خصيصة عامة شاملة يتصف بها كل مسلم ومسلمة، في مواجهة سائر شؤون الحياة وشجونها وتحدياتها المتشعّبة.

وحين نعمل الرؤية الكلية التي بناها القرآن، نجد الحياة الدنيا هي المرحلة الوحيدة، من بين مراحل عدة ممتدة من "عالم الذر والعهد" حتى "عالم الجنة أو النار"، التي يجد الإنسان نفسه فيها مكلّفاً ومسؤولاً ومستخلفاً ومؤتمناً ومبتلى. وقد سُخِّر الكون –كله– لتمكينه من القيام بهذه المسئوليات والأعباء الضخمة. وفي كل هذه الأمور هو في حاجة لاستنفار طاقاته كلها: العقليّة والنفسيّة والبدنيّة؛ ليتمكن من القيام بالجهود التي تتطلبها هذه المهام. فما من شيء منها إلاّ وهو في حاجة إلى الإنسان في كينونته وكليّته وجميع طاقاته. والتحديات التي تطرحها عليه هذه المهام، مهام الاستخلاف والائتمان والابتلاء، تحتاج منه –للقيام بها– إلى قدرة إبداعيّة. والقدرة الإبداعيّة يحتاجها وهو يخطط للقيام بهذه المهام، وفقاً لقدراته ومعطيات بيئته وسائر ظروفه، ليوقعها على أتم وأحسن وجه؛ بحيث تتحقق بها غايات الحق من الخلق، وتُتقَن وتؤدَّى على الوجه الذي ينبغي أن تكون عليه، وبدون ذلك فإن الإنسان قد يقصِّر لأنه لا يجد بين يديه كلَّ شيء جاهزاً، بحيث يمكنه أن يقلد فيه ويتابع ويحقق ما يريد بمجرد المتابعة والتقليد، فلا غنى إذن عن التحلّي بالقدرة الإبداعيّة، التي من شأنها أن تجعل الإنسان قادراً على إعداد الوسائل والأسباب، ومعرفة العلل والحكم والمقاصد والغايات، وطرق الفهم والفقه والتمثّل والأداء، وكل منها لا يمكن تحقيقه بدون الإبداع والطاقات الإبداعية للإنسان.

والنظر العقلي في الكون والوجود وفي الأنفس والآفاق، لا يمكن القيام به دون تحل بالطاقات والقدرات الإبداعيّة. ومثله القيام باستقراء أدلة الخلق على الحق، مثل دليل الخلق والإبداع، ودليل العناية والرعاية، ودليل ضبط النِّسب والسُّنَن والموازين. كل تلك الأمور في حاجة إلى استحضار الطاقة الإبداعيّة. فالطاقة الإبداعيّة بحدّ ذاتها مطلب شرعي ومقصد إيمانيّ، لا يعذر القادر على تحقيقه به بالتخليّ عنه أو عدم اتخاذ ما يلزم لتحقيقه.

والإبداع صِنْوُ الاجتهاد، ورديف له، من الصعب أن ينفكَّ أي منهما عن الآخر. وإذا كان الشارع لم يكثر من استعماله، إكثاره من استعمال مفهوم الاجتهاد، فلأن الاجتهاد أعمّ منه، يشملُه ويستوعبه ويتجاوزه إلى آفاق أخرى. فالاجتهاد عرفوه بأنه: "بذل الجهد العقليّ والنفسيّ للوصول إلى ظنّ بحكم شرعيّ حتى يعجز المجتهد عن بذل المزيد"، لكن الاجتهاد في مادته اللُّغوية عامّ شامل، حيث تحتاج أمور هذه الحياة المختلفة أن يبذل الإنسان كل ما لديه من طاقة عقليّة ونفسيّة لمعالجتها، وللوصول إلى تصورات سليمة حول كل منها، عندما تواجهه في أي مرحلة من مراحل حياته الطويلة الممتدة، سواء تعلق هذا الاجتهاد بحكم شرعيّ أو عقليّ أو طبيعيّ. ولذلك فإن تخصيص الأصوليّين له بالظن بالحكم الشرعيّ هو اصطلاح لهم لا يزيل عن الاجتهاد بقية معانيه، ولا يغلق بوجهه الميادين الأخرى التي يمكن أن ينفتح عليها. ولذلك قلنا بأنه صنو الإبداع وأن الإبداع صنوه ورديفه. فالإبداع والاجتهاد –كل منهما أو هما معاً– يتعاضدان لتجنيد جميع الطاقات العقليّة والنفسيّة الإنسانيّة، لبناء تصورات تمكن الإنسان من أداء دوره المرسوم في هذه الحياة، وتساعده على تحقيق غاية الحق من خلقه وغاية إيجاده فيها.

والاجتهاد والإبداع ضروريّان لتحقيق بناء الحياة الطيّبة، القائمة على تحقيق مقاصد الشارع الحكيم ودوام ازدهارها وتألقها، كما أنهما ضروريان لتحقيق قيمة التزكيّة في الإنسان، ولتحقيق قيمة العمران كذلك. إذ لا يمكن تصور الوصول إلى هذه القيم الحاكمة وتحويلها إلى واقع تستظل الحياة بوارف ظلاله دون الاجتهاد والإبداع. وحين يطول بالناس الأمد وتقسو منهم القلوب، وتؤثر هذه العوامل مع غيرها في مسيرة الحياة وعمرانها وزكاة النفوس وطهارتها، فإن تجديد الحياة وإعادة بنائها وبناء ما تهدم من عمرانها، أو تقادم من أركانها ومقوماتها، يعتمد على إمكانات التجديد.

والكشف عن إمكانات التجديد، ومعرفة مناهج إعمال هذه الإمكانات وتوظيفها، يتوقف على الاجتهاد والإبداع، وهنا يبرز "التجديد" باعتباره نتيجة وثمرة للاجتهاد والإبداع. فالتجديد مفهوم آخر من المفاهيم المفتاحيّة الكبرى، نحتاج إليه في تجديد الدين، بمعنى تجديد فهمه، وإعادة بناء مناهج الرجوع إلى مصادره الأساسيّة والنهل منها، وإعادة بناء الأولويّات. ومن ثَمّ فقه الحياة واستئناف السير فيها على هدى وبيّنة. ذلك كله يتوقف على التجديد. والتجديد لا يمكن أن يتم بدون اجتهاد وإبداع. من هنا يتضح أننا أمام منظومة متكاملة هي الاجتهاد والإبداع والتجديد؛ يأخذ كل منها بحُجْزِ الآخر لتحقق معاً غاياتها وأهدافها.

وقد عُني القرآن منذ بدء النزول، كما عُني رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ببناء الصدر الأول، جيل التلقّي، والحملة الأُول لرسالة الإسلام، وفقاً لهذه المنظومة المتلازمة التي استطاعت أن توجد ذلك الجيل

المتّبع دون تقليد، والمبدع دون تجاوز، والمجتهد دون افتآت، والمجدد دون تهوّر أو تبديد؛ فكان جيلاً مثالياً نموذجيّاً، عرف كيف يواجه أمور الحياة وتحدياتها. فلم يَعُدِ العَدَدُ والكمُّ كل شيء في الحياة. ولم تعد الطاقة الماديّة صاحبة الشأن الأكبر، فهذه الطاقة الماديّة لها حسابها، ولكن الحساب الأكبر في ذلك الجيل كان للقدرات العقليّة، والطاقات النفسيّة التي تنبثق عنها الإرادة والفاعليّة، وتستظل كلها بعد ذلك بالشرعيّة القرآنيّة. من هنا جاء القرآن المجيد يطالب المسلمين بأن يقف الواحد منهم بوجه عشرة من أعداء الحق والخير، ودعاة الجمود على الآبائيّة والتقليد للشيطان. وعلّل ذلك بأنهم قوم لا يفقهون، (الأنفال:65) وعدم الفقه هذا ناجم عن تعطيل العقول، وإعفائها من مسئولياتها. وبدلاً من توظيف العقول قلد هؤلاء الذين لا يفقهون آباءهم، وجمدوا على الماضي، واتبعوا الشيطان حتى أصبحوا من أوليائه. "كتب عليه أنّه من تولاّه فأنّه يُضلّه ويهديه إلى عذاب السعير" (الحج:4) وكأن القرآن الكريم يُبيّن أن هذا الفارق الكبير، المعلّل بعدم الفقه عند أعدائهم، يعني أن المؤمنين المسلمين قوم يفقهون. ولأنهم يفقهون استحقوا الغلبة والنصر، وأن تقاس طاقة الواحد منهم بعشر من مخالفيهم، وبعد التخفيف استقر الأمر على أن المؤمن الواحد يعدل اثنين من أولئك الذين لا يفقهون. والفقه هنا مفهوم شامل للفقه في الحياة بشكل تام وكامل. فهو فقه أكبر، وفهم في سائر شؤون الحياة وقضاياها.

إن الأمة –اليوم– أحوج ما تكون إلى إعادة بناء "ذاتها الثقافية والحضارية" و"تحديد هُوِيتها" بعد أن أصابها كثير من العبث والغبش. ونحن اليوم في مرحلة "عولمة" نجحت في جعل الحضارة في "طبعتها الغربية"، حضارة سائدة استوعبت معظم أجزاء الكرة الأرضية، وفرضت نفسها على العالم بمختلف الوسائل الاقتصادية والسياسية والإعلامية، وأصبحت مضامينها إطاراً من الاتصال والتواصل والتفاعل مما أعطاها الغلبة، وجعل ذلك الإطارُ الغالبُ كلَّ شعب من شعوب الكرة الأرضية يعيش –بتأثير ذلك الإطار– حالة جدل بين الماضي والحاضر والمستقبل، بين تراثه وحالة عصره؛ فإذا نظر المسلم –مثلاً– إلى تراثه، لا يجد نفسه قادراً على التعامل معه، وقد فقد القدرة على "الإبداع الحضاري"، فما عليه إلا محاولة إعادة إنتاج تراثه، ولأن ذلك الأمر مستحيل فليغرق إذن في أحلامه! أما إذا ولّى المسلم وجهه شطر المعاصرة، فإنه يجد نفسه مكبّلاً بارتباط عضوي يجعله تابعاً للمركز الحضاري الغربي؛ لشركاته وسياساته، واستراتيجياته العسكرية والثقافية والاقتصادية والسياسية. وهذان الخندقان –خندق التراث وخندق المعاصرة– بهذا التصور– يعتبر كل منهما معوقاً، بل قاتلاً للإبداع؛ لأن الإبداع لا يمكن أن يوجد ويزدهر إلا في أجواء الحرية التامة. أما من يقع بين أسر الماضي وإدمان تقليده، وأسر التبعية للحاضر، فأنّى له أي يبدع؟ وعقله وقلبه ووجدانه تترنح كلها بين التقليد والتبعية؟!

نعم إن هناك تراكماً هائلاً في تراثنا يحملنا على التقليد، ويحول بيننا وبين الإبداع أو الاجتهاد أو التجديد؛ لأنه بتراكماته يشدنا إلى التقليد. وهناك تفجر هائل في المعاصرة في كل شيء يجعل الإنسان أسيراً للتبعية. وهنا لابد من "توفير القدرة على الاستيعاب والتجاوز" لبلوغ عتبة "الإبداع". لقد واجهت أمتنا حروباً وعلاقات معقدة ضد البيزنطيّين والفرس ثم الصليبيين، ثم المغول، ثم الطرد من الأندلس وكثير من البقاع الأوربية التي وصلها المسلمون. ثم بدأت مواجهة من نوع جديد، مواجهة الحملات التنصيرية التي لم تتردد في أن تكون ستاراً ومقدمة وطليعة للغزو والاحتلال فيما بعد. وهي تواجه –اليوم– حالة محو للهوية وتدمير للخصوصيات بسائر أنواعها، ولن تتمكن من حماية دعائم هُويَّتها، والمحافظة على خصوصياتها، بدون تجنيد شامل لطاقات أبناء الأمة وفصائلها المختلفة، ودفعهم باتجاه "الإبداع والاجتهاد"، لبلوغ حالة التجديد التي تخرج الأمة من حالة الانفعال إلى حالة الفعل، وترشحها للشراكة في صناعة الفعل بدلاً من الانفعال السلبيّ.

إن الإبداع والاجتهاد يحتاجان إلى أجواء الحرية. فلا ينبغي أن تتوقع من المبدع أو المجتهد انعدام الخطأ في إبداع أو اجتهاد أي منهما. فكل ابن آدم خطاء، ولكن الخطأ في الاجتهاد خطأٌ مأجور، فهو خطؤٌ إنساني يتعلم منه الإنسان منه، ويستفيد من خبرته فيه، فلا ينبغي أن نضيق ذرعاً بخطأ مبدع أو مجتهد، أو نسارع إلى التكفير أو التفسيق أو الاتهام بالبدعة وما إلى ذلك، فتلك الأساليب كلها قاتلة للإبداع، منافية للاجتهاد.

ولقد رأت إدارة تحرير مجلة "إسلامية المعرفة" أن تخصص هذا العدد "للإبداع"؛ رغبة منها في جعل هذا المفهوم متداولاً في الأوساط الفكرية المسلمة؛ لتقوم الأقلام بإنضاجه، وإشاعة الوعي عليه، ودفع الطاقات الشابة إلى اقتحام عقبته وممارسته، كل في حقله. وقد تلقت المجلة عدداً من المقالات، بعد أن تم عرضها على أهل الاختصاص للتحكيم العلمي المعروف وها نحن ننشر ما اجتاز مراحل التحكيم. وتحب إدارة تحرير المجلة أن تؤكد أن هذا العدد الخاص من المجلة لم يأت بالكلمة الفاصلة في قضية الإبداع، وحسبه أن يفتح الباب لتناولها وتداولها، ويشير إلى ضرورة إشاعة الوعي بها بين مثقفي الأمة.

والله الموفق.